

المعينة العامة فالسمع والبصر والعلم كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: 4]. ومعنى ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي تركوا المحرمات ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ﴾ أي فعلوا الطاعات، فهؤلاء يحفظهم الله ويكلوهم وينصرهم ويؤيدهم على أعدائهم ومخالفهم.

تفسير سورة الإسراء

في البخاري عن عبد الرحمن بن يزيد قال: سمعت ابن مسعود رضي الله عنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم: إنهن من العتاق الأول، وهن تلاميذ. وروى الإمام أحمد عن عائشة تقول: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْإِبْرَةِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (1).

يمجد تعالى نفسه، ويعظم شأنه، لقدرة على ما لا يقدر عليه أحد سواه، فلا إله غيره، ولا رب سواه. ﴿الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿لَيْلًا﴾ أي في جنح الليل ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وهو مسجد مكة ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ وهو بيت المقدس الذي «بإيلياء» معدن الأنبياء من لدن إبراهيم عليه السلام. ولهذا جمعوا له هناك كلهم، فأمرهم في محلتهم ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم. صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وقوله تعالى: ﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أي في الزروع والثمار ﴿لِنُرِيَهُ﴾ أي محمداً ﷺ ﴿مِنَ الْإِبْرَةِ﴾ أي العظام كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (18) [النجم: 18] ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي السميع لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم، مصدقهم ومكذبهم، البصير بهم فيعطي كلاً منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة. هذا وحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، وأعرض عنه الزنادقة والملحدون.

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ (2).

لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبد محمد ﷺ عطف بذكر موسى عبده ورسوله وكتيمه أيضاً، فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد ﷺ، وبين ذكر التوراة والقرآن، ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي الكتاب ﴿هُدًى﴾ أي هادياً ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ أي لئلا تتخذوا ﴿مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ أي ولياً ولا نصيراً، ولا معبوداً دوني، لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبدوه وحده لا شريك له.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ ﴿٣﴾ .

ثم قال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ تقديره: يا ذرية من حملنا مع نوح، وفيه تيسير وتنبية على المنة، أي يا سلالة من نجينا فحملنا في السفينة، تشبهوا بأبيكم ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ فاذكروا أنتم نعمتي عليكم بإرسالني إليكم محمداً ﷺ. روى مسلم «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها».

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لُفُوسِدْنَ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلُنَّ عُلُوًّا

كَبِيرًا﴾ ﴿٤﴾ .

يخبر تعالى أنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب، أي تقدم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين، ويعلمون علواً كبيراً، أي يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا

مَفْعُولًا﴾ ﴿٥﴾ .

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أي أولي الانساذتين ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي سلطنا عليكم جنداً من خلقنا أولي بأس شديد، أي قوة وعدة وسلطنة شديدة فجاسوا خلال الديار، أي تملكوا بلادكم، وسلكوا خلال بيوتكم، أي بينها ووسطها، وانصرفوا ذاهبين وجائين، لا يخافون أحداً، ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ .

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ ﴿٦﴾ .

وقد قيل: إن المسلط عليهم هو جالوت الجزري وجنوده سلط عليهم أولاً، ثم أدبلوا عليه بعد ذلك ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: 251] وقيل: إنه ملك الموصل «سنحاريب» وجنوده، وقيل: هو «بختنصر» ملك بابل. وقد وردت هنا آثار إسرائيلية كثيرة منها ما هو موضوع من بعض زنادقتهم، ومنها ما يحتمل أن يكون صحيحاً، وفيما قص الله علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم. وقد أخبر الله عنهم أنهم لما طغوا وبغوا سلط الله عليهم عدوهم فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم، وأذلهم وقهرهم جزاء وفاقاً ﴿وَمَا رُبُّكَ يَظْلَمُ لِلْقَاسِمِينَ﴾ [فصلت: 46] فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء.

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْسُوا وُجُوهَكُمْ

وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عَلَوُا تَبَرُّرًا﴾ ﴿٧﴾ .

﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي فعلها كما قال تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: 46]

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي الكرة الآخرة أي إذا أفسدتم الكرة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿لِيَسْتَأْذِنُوا جُوهَكُمْ﴾ أي يبينوكم ويقهروكم ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ أي بيت المقدس ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي في التي جاسوا فيها خلال الديار ﴿وَلِيَسْتَأْذِنُوا﴾ أي يدمروا ويخربوا ﴿مَا عَلَّمْنَا﴾ أي ما ظهروا عليه ﴿نَبِيًّا﴾.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عَلَيْنَا جِئْنَاكُمْ بِجَهَنَّمَ لِيُكْفِرِينَ بِإِسْمِكُمْ﴾.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ أي فيصرفهم عنكم ﴿وَإِنْ عُدتُمْ عَلَيْنَا﴾ أي متى عدتم إلى الإفساد ﴿عُدْنَا﴾ إلى الإدالة عليكم في الدنيا مع ما ندخره لكم في الآخرة من العذاب والنكال. ولهذا قال: ﴿وَجِئْنَاكُمْ بِجَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي مستقراً ومحضراً وسخياً لا محيد لهم عنه. قال قتادة: قد عاد بنو إسرائيل فسلط الله عليهم هذا الحي «محمداً ﷺ وأصحابه»، يأخذون منهم الجزية عن يدهم صاغرون.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا

كَبِيرًا﴾.

يمدح الله تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن الكريم بأنه يهدي لأقوم الطرق، وأوضح السبل، ويبشر المؤمنين به الذين يعملون الصالحات على مقتضاه أن لهم أجراً كبيراً أي يوم القيامة.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن لهم عذاباً أليماً، أي يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَنَبِّئْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾.

يخير تعالى عن عجلة الإنسان ودعائه في بعض الأحيان على نفسه وولده، أو ماله بالشر، أي بالموت، أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه، وفي الحديث: «لا تدعوا على أنفسكم، ولا على أموالكم أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها». وإنما يحمل ابن آدم على ذلك قلقه وعجلته، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾.

﴿وَجَعَلْنَا آيَاتٍ لِلنَّهَارِ وَاللَّيْلِ فَحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن

رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَلْنَاهُ نَفْصِيلًا﴾.

يمتن الله على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار ليستكنوا في الليل، ويتشروا في النهار للمعاش والصنائع والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات، والمعاملات والإجازات وغير ذلك. ولهذا

قال: ﴿لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي في معاشكم وأسفاركم ونحو ذلك. ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئَاتِ الَّتِي كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً، وأسلوباً متساوياً لما عرف شيء من ذلك.

﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُرْفِهِ وَنُخْرِجُ لَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (١٣).

يقول تعالى بعد ذكر الزمان، وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُرْفِهِ﴾ وطائره هو ما طار عنه من عمله من خير وشر، ويلزم به ويجازى عليه. وقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ أي نجمع له عمله كله في كتاب يعطاه يوم القيامة، إما بيمينه إن كان سعيداً، أو بشماله إن كان شقيماً ﴿مَنشُورًا﴾ أي مفتوحاً، يقرؤه هو وغيره، فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره ﴿يَبَيِّنُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ (١٣) [القيامة: 13] ولهذا قال:

﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (١٤).

﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي إنك تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك إلا ما عملت، لأنك ذكرت جميع ما كان منك، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمي.

﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَأَنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (١٥).

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق، واقتفى أثر النبوة، فإنما يحصل على عاقبة ذلك الحميدة لنفسه ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ أي عن الحق، وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجني على نفسه، وإنما يعود وبال ذلك عليه. ثم قال: ﴿وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجني جانٍ إلا على نفسه، وهذا من عدل الله ورحمته بعباده. وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ إخبار عن عدله تعالى، وأنه لا يعذب أحد إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه، كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَلْفَيْ نَافِلَةٍ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَائِنَهَا آلَاءٌ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلْ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ (الملك: 8، 9).

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (١٦).

﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أمراً قديراً ففسقوا فيها، كقوله تعالى: ﴿أَتُنَهَّا أَتْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: 24] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: 28] قالوا: معناه أنه سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب، وقيل: معناه أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة، أو سلطنا أشرارهم فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكتهم الله بالعذاب، وهو قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا لِيَسْكَرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: 123].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ رِبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (١٧).

يقول تعالى منذراً كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ بأنه قد أهلك أمماً من المكذبين للرسول من بعد نوح. ودل هذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح على الإسلام كما قاله ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام. ومعناه أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم، وقد كذبتم أشرف الرسل، وأكرم الخلائق، فعقوبتكم أولى وأحرى. وقوله: ﴿وَكَفَىٰ رِبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أي هو عالم بجميع أعمالهم خيرا وشرها، لا يخفى عليه منها خافية. سبحانه وتعالى.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (١٨).

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل له، بل إنما يحصل لمن أراد الله. و﴿مَا نَشَاءُ﴾ هذه مقيدة لاطلاق ما سواها من الآيات، فإنه قال ﴿عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿يَصَلُّهَا﴾ أي يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه ﴿مَذْمُومًا﴾ أي في حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وصنيعه إذ اختار الفاني على الباقي ﴿مَدْحُورًا﴾ مبعداً مقصياً، حقيراً ذليلاً مهاناً. روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له».

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ (١٩).

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ أي أراد الدار الآخرة، وما فيها من النعيم والسرور ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي طلب ذلك من طريقه، وهو متابعة الرسول ﷺ ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي قلبه مؤمن، أي مصدق بالشواهد والجزاء ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾.

﴿كُلًّا نُمِدُّ هُنُوًا وَهَنُوًا مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (٢٠).

يقول تعالى ﴿كُلًّا﴾ أي كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا، والذين أرادوا الآخرة نمدهم فيما فيه ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ أي هو المتصرف الحاكم الذي لا يجوز فيعطي كلاً ما يستحقه من السعادة والشقاوة، فلا راد لحكمه، ولا مانع لما أعطى، ولا مغير لما أراد، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي لا يمنعه أحد، ولا يرده راد، أو ﴿مَحْظُورًا﴾ منقوصاً، أو ممنوعاً.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۗ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ (٢١).

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي في الدنيا، فمنهم الغني والفقير وبين ذلك، والحسن والقيبح وبين ذلك، ومن يموت صغيراً، ومن يعمر حتى يبقى شيخاً كبيراً وبين ذلك ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ﴾

وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ أي ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من الدنيا، فإن منهم من يكون في الدرجات في جهنم وسلسلها وأغلالها، ومنهم من يكون في الدرجات العلى ونعيمها وسرورها، ثم أهل الدرجات يتفاوتون فيما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون، فإن الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. وفي الصحيحين: «إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء». وفي الطبراني مرفوعاً: «ما من عبد يريد أن يرتفع في الدنيا درجة فارتفع إلا وضعه الله في الآخرة أكبر منها» ثم قرأ ﴿وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ ﴿٢٢﴾.

يقول تعالى، والمراد المكلفون من الأمة: لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكاً ﴿فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا﴾ أي على إشراكك به ﴿مَّخْذُولًا﴾ لأن الرب لا ينصرك، بل يكلك إلى الذي عبدت معه، وهو لا يملك لك ضراً ولا نفعاً، لأن مالك الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له. روى الإمام أحمد قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله أرسل الله له بالغنى إما عاجلاً، وإما عاجلاً». ورواه أبو داود والترمذي. قال الترمذي: حسن صحيح غريب.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ ﴿٢٣﴾.

يقول تعالى أمراً بعبادته وحده لا شريك له، فإن القضاء ههنا بمعنى الأمر، ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي وأمر بالوالدين إحساناً كقوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: 14] ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا﴾ أي لا تسمعهما قولاً سيئاً حتى ولا التأفف الذي هو أدنى مراتب القول السيء ﴿وَلَا نَهْرَهُمَا﴾ أي ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح. ولما ناه عن القول القبيح، والفعن القبيح أمر بالقول الحسن والفعل الحسن فقال ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي لينا طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم.

﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا﴾ ﴿٢٤﴾.

﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي تواضع لهما بفعلك ﴿وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا﴾ أي في كبرهما وعند وفاتهما. روى الإمام أحمد، قال رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي، ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان فانسلك فلم يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك أبواه عنده الكبير فلم يدخلاه الجنة».

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأُولَٰئِكَ عَفْوَكَ﴾ ﴿٢٥﴾.

قال سعيد بن جبیر: هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه، وفي نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به ﴿فَإِنَّهُ

كَانَ لِلأَوَّلِينَ عَفْوَكَ ﴿٢٦﴾ للمطيعين أهل الصلاة، أو للذين يصلون الضحى، أو للذين يصيبون الذنب، ثم يتوبون، ويصيبون الذنب ثم يتوبون. عن عبيد بن عمير: كنا نعد الأواب الحفيظ أن يقول: اللهم اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا. قال ابن جرير: والأولى في ذلك قول من قال: هو التائب من الذنب، الرجوع من المعصية إلى الطاعة مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه. وهذا هو الصواب لأن الأواب مشتق من الأوب، وهو الرجوع. وفي الحديث الصحيح أن رسول الله كان إذا رجع من سفره قال: «آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون» ﴿٢٥﴾ [الغاشية: 25].

﴿وَمَاتِ ذَا الْقُرْبَيْنِ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ .

لما ذكر تعالى بر الوالدين عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام، وفي الحديث: «أمك وأباك، ثم أذنك أذنك» وفي رواية: «ثم الأقرب فالأقرب». وفي الحديث: «من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أجله فليصل رحمه» ﴿٢٦﴾ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه، بل يكون وسطاً، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفرقان: 67].

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ .

ثم قال منفراً عن التبذير والسرف: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾ أي أشباههم في ذلك. قال ابن مسعود: التبذير الإنفاق في غير حق. وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً، ولو أنفق مداً في غير حق كان مبذراً. وقال قتادة: التبذير النفقة في معصية الله تعالى، وفي غير الحق والفساد. ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ أي جحوداً، لأنه أنكر نعمة الله عليه، ولم يعمل بطاعته، بل أقبل على معصيته ومخالفته.

﴿وَأِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ رَرْجُوهَا فَقُلْ لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ .

﴿وَأِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ...﴾ أي إذا سألك أقاربك، ومن أمرناك بإعطائهم، وليس عندك شيء وأعرضت عنهم لفقد النفقة ﴿فَقُلْ لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي عداهم وعداً بسهولة ولين، إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ .

يقول تعالى أمراً بالاقتصاد في العيش ذاماً للبخل، ناهياً عن السرف، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي لا تكن بخيلاً منوعاً، لا تعطي أحداً شيئاً ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ أي ولا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ وهذا من باب اللف والنشر، أي فتقعد إن بخلت ملوماً يلومك الناس، ويذمونك ويستغنون عنك، ومتى بسطت يدك فوق طاقتك قعدت بلا شيء تنفقه فتكون كالحسير، وهو الدابة التي قد عجزت عن السير فوقت ضعفاً وعجزاً،

فإنها تسمى الحسير، وهو مأخوذ من الكلال كما قال تعالى: ﴿فَأَنْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۚ ثُمَّ أَنْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَائِسًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: 3، 4] وفي الحديث: «إن الله قال لي: أنفق أنفق عليك» وفي الحديث: «ما عال من اقتصد».

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٣٠).

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ إخبار أنه تعالى هو الرازق القابض الباسط المتصرف في خلقه بما يشاء فيغني من يشاء، ويفقر من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة ﴿إِنَّهُ كَانَ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أي خبيراً بصيراً بمن يستحق الغنى، ويستحق الفقر، كما جاء في الحديث: «إن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه». وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجاً، والفقر عقوبة. عياداً بالله من هذا وهذا.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ تَنْحُنُّ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قُلُوبَهُمْ كَانَتْ خِطَاءً كَبِيرًا﴾ (٣١).

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم عباده من الوالد بولده، لأنه نهي عن قتل الأولاد، كما أوصى الآباء بالأولاد في الميراث، وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لثلاث تكثر عليه عيلته فنهى الله تعالى عن ذلك وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ أَي خَوْفِ أَنْ تَفْتَقَرُوا فِي ثَانِي الْحَالِ، وَلِهَذَا قَدِمَ الْإِهْتِمَامُ بِرِزْقِهِمْ فَقَالَ: ﴿تَنْحُنُّ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ «إِنَّ قُلُوبَهُمْ كَانَتْ خِطَاءً كَبِيرًا» أَي ذَنْبًا عَظِيمًا. وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نَدَاءً وَهُوَ خَلْقُكَ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشِيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَرَازِي بِحَلِيلَةِ جَارِكَ».

﴿وَلَا تَقْرُبُوا الرِّزْقَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٣٢).

يقول تعالى ناهياً عباده عن الرزق وعن مقاربتة ومخالطة أسبابه ودواعيه ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الرِّزْقَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾ أي ذنباً عظيماً ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي وبئس طريقاً ومسلكاً.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ (٣٣).

في الصحيحين أن رسول الله قال: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المحصن والتارك لدينه المفارق للجماعة». وفي السنن: «لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مسلم». ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا﴾ أي سلطة على القاتل، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله فوراً، وإن شاء عفا عنه على الدية، وإن شاء عفا

عنه مجاناً ﴿فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾ فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتص من غير القاتل. وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ أي إن الولي منصور على القاتل شرعاً وقدرًا.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (٢٤).

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أي لا تتصرفوا في مال اليتيم إلا بالغبطة ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 6] وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر: «يا أبا ذر، إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين، ولا تؤلن مال يتيم». وقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ أي الذي تعاهدون عليه الناس، والعقود التي تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٢٥).
﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ أي من غير تطفيف ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الشعراء: 183] ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ﴾ وهو الميزان ﴿الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي الذي لا اعوجاج فيه ولا اضطراب ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أي لكم في معاشكم ومعادكم. ولهذا قال ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي مآلاً ومنقلباً في آخرتكم. عن ابن عباس: يا معشر الموالي، إنكم وليتم أمرين بهما هلك الناس قبلكم، هذا المكيال، وهذا الميزان، وفي الحديث: «لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه ليس به إلا مخافة الله إلا أبدله الله به في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك».

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٢٦).
﴿وَلَا تَقْفُ﴾ لا تقل، أو لا ترم أحداً بما ليس لك به علم، أو هو شهادة الزور، أو لا تقل: رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، فإن الله سائلك عن ذلك كله. ومضمون ما ذكره أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم، بل بالظن الذي هو التوهم والخيال ﴿أَجْتَبَيْتُمَا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّكُم بِبَعْضِ الظَّنِّ إِتْرَاءٌ﴾ [الحجرات: 12] وفي الحديث: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث». وفي سنن أبي داود: «بئس مطية الرجل زعموا». وفي الحديث الآخر: «إن أفرى الفرى أن يري الرجل عينيه ما لم تريا» ﴿كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ أي هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد سيسأل العبد عنها يوم القيامة، وتساءل عنه، و عما عمل فيها.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (٢٧) ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (٢٨).
يقول تعالى ناهياً عباده عن التجبر والتبختر في المشية ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي متبختراً متميلاً

مشي الجبارين ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ أي لن تقطع الأرض بمشيك. ﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ أي بتمايك وفخرك، وإعجابك بنفسك، بل قد يجازى فاعل ذلك بنقيض قصده، كما ثبت في الصحيح: «بينما رجل يمشي فيمن كان قبلكم، وعليه بردان يتبختر فيهما إذ خسف به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة». وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون أنه خرج على قومه في زينتته، وأن الله خسف به وبداره الأرض. وفي الحديث: «من تواضع لله رفعه، فهو في نفسه حقير وعند الناس كبير، ومن استكبر وضعه الله، فهو في نفسه كبير وعند الناس حقير، حتى لهو أبغض إليهم من الكلب والخنزير» ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَلَنَقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٢٩﴾﴾.

يقول تعالى: هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس ﴿وَلَا جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَلَنَقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ أي تلومك نفسك، ويلومك الله والخلق ﴿مَدْحُورًا﴾ أي مبعداً من كل خير. والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ، فإنه صلوات الله وسلامه عليه معصوم.

﴿أَفَأَصْفَنَّاكَ رَبُّكَم بِالْبَيْنِ وَأَتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثَاءً إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٣٠﴾﴾.

يقول تعالى راداً على المشركين الكاذبين الزاعمين، عليهم لعائن الله أن الملائكة بنات الله فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ثم ادعوا أنهم بنات الله، ثم عبدوهم فأخطؤوا في كل المقامات الثلاث خطأ عظيماً فقال تعالى منكرأ عليهم: ﴿أَفَأَصْفَنَّاكَ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ﴾ أي خصصكم بالذكر ﴿وَأَتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثَاءً﴾ أي واختار لنفسه على زعمكم البنات، ثم شدد الإنكار عليهم فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ أي في زعمكم أن الله ولدأ، ثم جعلكم ولده الإناث التي تأنفون أن يكنن لكم، وربما قتلتموهن بالوآد، فتلك إذاً قسمة ضيزى.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٣١﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الإسراء: 89] أي صرفنا فيه من الوعيد لعلمهم يذكرون ما فيه من الحجج والبيانات والمواعظ فينزجروا عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أي الظالمين منهم ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ أي عن الحق، وبعداً منه.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن الله شريكاً من خلقه العابدين معه غيره ليقرّبهم إليه زلفى: لو كان الأمر كما تقولون، وأن معه آلهة تعبد لتتقرب إليه وتشفع لديه لكان أولئك المعبدون يعبدونه ويتقربون إليه، ويتبعون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبد من

تدعونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه، وقد نهى عن ذلك على السنة جميع رسله، وأنبياؤه.

﴿سَبَّحْنَاهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (١٣).

ثم نزه نفسه الكريمة وقدها فقال: ﴿سَبَّحْنَاهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي هؤلاء المشركون المتعدون الظالمون في زعمهم أن معه آلهة أخرى ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أي تعالياً كبيراً، بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

﴿سَبِّحْ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (١٤).

يقول تعالى: تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن، أي من المخلوقات وتنزهه وتعظمه وتبجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته، كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشُقُ الْأَرْضَ وَنَحْنُ الْجَبَالُ هَذَا﴾ (١٥) ﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ (١٦) [مريم: 90، 91] وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي لا تفقهون تسييحهم أيها الناس، لأنها بخلاف لغاتكم، وهذا عام من الحيوانات والجمادات والنباتات. وهذا أشهر القولين كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسييح الطعام، وهو يؤكل. وفي حديث أبي ذر أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات فسمع لهن تسييح كحنين النحل. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي إنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يؤجله وينظره، فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر، كما جاء في الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته». ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذُ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَلِيمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٧) [هود: 102].

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ (١٨).

يقول تعالى لرسوله محمداً ﷺ: وإذا قرأت يا محمد على هؤلاء المشركين القرآن جعلنا بينك وبينهم حجاباً مستوراً، هو الأكنة على قلوبهم ﴿حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ بمعنى ساتر، كميون ومشؤوم بمعنى يامن وشائم، وقيل: مستوراً عن الأبصار، فلا تراه، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِرْتَ بِكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدُّهُ وَلَوْ عَلَيَّ آدَبْتَهُمْ نَفُورًا﴾ (١٩).

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ وهي جمع كنان الذي يغشى القلب ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أي لثلا يفهموا القرآن ﴿وَفِي

مَأَانِهِمْ وَقُرْآءِهِمْ وَهُوَ الثَّقَلُ الَّذِي يَمْنَعُهُمْ مِنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ سَمَاعاً يَنْفَعُهُمْ وَيَهْتَدُونَ بِهِ ﴿وَإِذَا ذُكِرْتِ رَيْكَ فِي الْفَرْغِ وَحَدَّثُ﴾ أي وحدت الله في تلاوتك وقلت : لا إله إلا الله ﴿وَلَوْ﴾ أي أدبروا راجعين ﴿عَلَىٰ أَدْبُرِهِمْ نُفُورًا﴾ ونفور جمع نافر، كقعود جمع قاعد، ويجوز أن يكون مصدرًا من غير الفعل . والله أعلم .

﴿تَنْحُنُّ أَعْلَامُهُمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ ﴿٤٧﴾ .

يخبر تعالى نبيه محمداً ﷺ بما يتناجى به رؤساء كفار قريش حين جاؤوا يستمعون قراءته ﷺ سرّاً من قومهم بما قالوا من أنه رجل مسحور من السّحر على المشهور، أو من السّحر، وهو الرثة، إن تتبعون إن اتبعتم محمداً إلا بشراً يغذى وفيه نظر، لأنهم أرادوا ههنا أنه مسحور، له رثي يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه، ومنهم من قال : شاعر، ومنهم من قال : كاهن، ومنهم من قال : مجنون، ومنهم من قال : ساحر .

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ ﴿٤٨﴾ .

ولهذا قال : ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ ﴿٤٨﴾ أي فلا يهتدون إلى الحق، ولا يجدون إليه مخلصاً .

﴿وَقَالُوا أَوَآدَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفْنَا أَوَآدَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿٤٩﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستبعدين وقوع المعاد القائلين استفهام إنكار منهم لذلك ﴿أَوَآدَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفْنَا﴾ أي تراباً، أو غباراً ﴿أَوَآدَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي يوم القيامة بعدما بلينا وصرنا عدماً كما أخبر عنهم في الموضع الآخر . ﴿يَقُولُونَ أَوَآدَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْمَعَادِ﴾ ﴿٥٠﴾ أَوَآدَا كُنَّا عِظْمًا مَحْرُورَةً ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِذَا كَرِهْتَ خَاسِرَةٌ ﴿٥٢﴾ [النازعات : 10-12] .

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ ﴿٥٣﴾ .

إذ هما أشد امتناعاً من العظام والرفات .

﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ

إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ ﴿٥٤﴾ .

﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ هو الموت، أي لو كنتم موتى لأحييتكم . ومعنى ذلك أنكم لو فرضتم أنكم لو صرتم إلى الموت الذي هو ضد الحياة لأحياكم الله إذا شاء، فإنه لا يمتنع عليه شيء إذا أَرَادَهُ . أو ﴿خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ يعني السماء والأرض والجبال، أو ما شئتم فكونوا فسيعيدكم الله بعد موتكم ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ أي من يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر

شديداً ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، ثم صرتم بشراً تنتشرون، فإنه قادر على إعادتكم، ولو صرتم إلى أي حال ﴿وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: 27] ﴿فَسَيَنْفِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ يحركونها استهزاء، والانغضاض هو التحرك من أسفل إلى أعلى، أو من أعلى إلى أسفل، ومنه قيل للظلم وهو ولد النعمة نغض، لأنه إذا مشى عجل بمشيته، وحرك رأسه ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك ﴿قُلِ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أي احذروا ذلك، فإنه قريب إليكم، سيأتيكم لا محالة، فكل ما هو آت آت .

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لِّئِنَّهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٥٦﴾ .

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي تقولون كلكم: إجابة لأمره وطاعة لإرادته، أو ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي بأمره أو وله الحمد في كل حال. وفي الحديث: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم، كأني بأهل لا إله إلا الله يقومون من قبورهم ينفضون التراب عن رؤوسهم يقولون: «لا إله إلا الله». وفي رواية يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: 34] ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ أي يوم تقومون من قبوركم ﴿إِن لِّئِنَّهُ﴾ أي في الدار الدنيا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ وكقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَنْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَيْبَةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ ﴿٥٧﴾ [النازعات: 46].

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَتْ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ ﴿٥٨﴾ .

يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباده المؤمنين أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن، والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر، والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم، وعداوته ظاهرة بينة، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار» أخرجاه من حديث عبد الرزاق. وعند الإمام أحمد «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، التقوى ههنا» قال حماد: وأشار بيده إلى صدره. وما تواد رجلان في الله ففرق بينهما إلا حدث يحدثه أحدهما، والمحدث شر، والمحدث شر، والمحدث شر».

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَسْأُ يَرْحَمَكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ ﴿٥٩﴾ .

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أيها الناس بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق ﴿إِنْ يَشَأْ يَرْحَمَكُمْ﴾ بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه ﴿أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي إنما أرسلناك نذيراً، فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّنَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا﴾ (٥٥).

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي بمراتبهم في الطاعة والمعصية، ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّنَ عَلَى بَعْضٍ﴾ وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين: «ولا تفضلوا بين الأنبياء» فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهي والمعصية، لا بمقتضى الدليل، فإذا دل دليل على شيء وجب اتباعه، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولي العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وسيدنا محمد ﷺ، ولا خلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم نوح على المشهور ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا﴾ تنبيه على فضله وشرفه. في البخاري عن النبي ﷺ: «خفف على داود القرآن، فكان يأمر بدوابه فتسرح فكان يقرؤه قبل أن يفرغ» يعني القرآن.

﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ (٥٦).
﴿أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأصنام والأنداد، فارغبوا إليهم ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ﴾ أي بالكلية ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ بأن يحولوه إلى غيركم، والمعنى أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ (٥٧).
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفرًا من الجن فأسلم الجنيون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم، فنزلت هذه الآية. والوسيلة هي القربة، ولهذا قال: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف عن المناهي، وبالرجاء يكثر من الطاعات. وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي ينبغي أن يحذر منه، ويخاف من وقوعه، وحصوله. عباداً بالله منه.

﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ أَلْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (٥٨).

هذا إخبار من الله عز وجل بأنه قد حتم وقضى بما قد كتب عنده في اللوح المحفوظ، أنه ما من قرية إلا سيهلكها بأن يبئد أهلها جميعهم أو يعذبهم ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم كما قال تعالى عن الأمم الماضية: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود: 101].

﴿وَمَا مَعْنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ وَعَآئِنَا نُمَوِّدُ الْفَآئِقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِّفًا﴾ ﴿٥٩﴾ .

قال المشركون يا محمد، إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء، فمنهم من سخرت له الريح، ومنهم من كان يحيي الموتى، فإن سرك أن نؤمن بك، ونصدقك، فادع ربك أن يكون لنا الصفا ذهباً، فأوحى الله إليه: إني قد سمعت الذي قالوا، فإن شئت أن تفعل الذي قالوا، فإن لم يؤمنوا نزل العذاب، فإنه ليس بعد نزول الآية مناظرة، وإن شئت أن نستأني بقومك استأنت بهم، قال: «يا رب استأن بهم» ﴿وَعَآئِنَا نُمَوِّدُ الْفَآئِقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي دالة على وحدانية من خلقها، وصدق رسوله الذي أوجب دعاؤه فيها ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي كفروا بها، ومنعوا شربها، وقتلوا فأبادهم الله عن آخرهم، وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر. وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِّفًا﴾ قال قتادة: إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون. ذكر أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود رضي الله عنه فقال: يا أيها الناس، إن ربكم يستعبتكم فأعتهبه. وروي أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرات فقال عمر: أحدثتم والله، لئن عادت لأفعلن ولأفعلن. وفي الحديث المتفق عليه: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله عز وجل يخوف بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره، ثم قال: يا أمة محمد، والله ما أحد أغير من الله، أن يزني عبده، أو تزني أمته، يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً».

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ ﴿٦٠﴾ .

يقول تعالى لرسوله ﷺ محرضاً له على إبلاغ رسالته، ومخبراً له بأنه قد عصمه من الناس، فإنه القادر عليهم، وهم في قبضته وتحت قهره وغلبته ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ أي عصمك منهم ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ قال هي رؤيا عين، أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ شجرة الزقوم ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ أي اختباراً وامتحاناً فرجع ناس عن دينهم بعدما كانوا على الحق، لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وجعل الله ذلك ثباتاً وبقيناً لآخرين. وأما الشجرة الملعونة فهي شجرة الزقوم، لما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار، ورأى شجرة الزقوم، فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل عليه لعائن الله: هاتوا لنا تمراً وزبداً، وجعل يأكل من هذا بهذا، ويقول: تزقموا، فلا نعلم الزقوم غير هذا ﴿وَنُحَوِّفُهُمْ﴾ أي الكفار بالوعيد والعذاب والنكال ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ أي تمادياً فيما هم فيه من الكفر والضلال، وذلك من خذلان الله لهم.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ .

يذكر تبارك وتعالى عداوة إبليس لعنه الله لآدم وذريته، وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له، افتخاراً عليه واحتقاراً له ﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ .

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا

قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ .

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ﴾ يقول هذا للرب جراءة وكفراً، والرب يحلم ويُنظر ﴿هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ...﴾ يقول: لأستولين على ذريته ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ وقال مجاهد: لأحتوين، وقال ابن زيد: لأضلنهم، وكلها متقاربة. والمعنى أرايتك هذا الذي شرفته وعظمته عليّ لئن أنظرتني لأضلن ذريته إلا قليلاً منهم.

﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾ .

لما سأل إبليس النظرة قال الله له: ﴿تَقَفْ﴾ فقد أنظرتك، كما قال في الآية الأخرى ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٦٤﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٦٥﴾﴾ [الحجر: 37، 38] ثم أوعده ومن اتبعه من ذرية آدم جهنم ﴿فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ﴾ أي على أعمالكم ﴿جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ وافرأ، لا ينقص لكم منه شيء.

﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْكِ وَرَجْلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ

وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٦﴾﴾ .

﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ قيل: هو الغناء، أي استخفهم باللهو والغناء، أو هو كل داعٍ دعا إلى معصية الله عز وجل ﴿وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْكِ وَرَجْلِكَ﴾ يقول: واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجلتهم، فإن الرجل جمع راجل، كما أن الركب جمع راكب، والصحب جمع صاحب، ومعناه تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه، وهذا أمر قدره كقوله تعالى: ﴿الَّذِي تَرَى أَنَّ آرْسَنَا الشَّيْطَانِ عَلَى الْكُفْرِينَ تَوَزُّؤُهُمْ أَزًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: 83] أي تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً، وتسوقهم إليها سوقاً ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال في معاصي الله تعالى، أو هو الربا، أو هو جمعها من خبيث، وإنفاقها في حرام، أما مشاركته إياهم في أموالهم فهو ما حرموه من أنعامهم، يعني من البحائر والسوائب ونحوها، والآية أعم ﴿وَالْأَوْلَادِ﴾ هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفهاً بغير علم، أو معنى المشاركة أن كل ما عصى الله فيه أو به، أو أطيع الشيطان فيه، أو به فهو مشاركة، فقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم». وفي الصحيحين أن

رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال: باسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً» ﴿وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَعَدَتُكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ﴾ [إبراهيم: 22].

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ ﴿١٥﴾.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين، وحفظه إياهم، وحراسته لهم من الشيطان الرجيم، ولهذا قال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ أي حافظاً ومؤيداً ونصيراً. روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن لينضي شيطانه كما ينضي أحدكم بعيره في السفر» - ينضي أي يأخذ بناصيته ويقهره -.

﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُرِيحُ لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ﴿١٦﴾.

يخبر تعالى عن لطفه بخلقه في تسخيره لعباده الفلك في البحر وتسهيله لمصالح عباده لا بتغائهم من فضله في التجارة من إقليم إلى إقليم ولهذا قال ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم ورحمته بكم.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا تَجَنَّكُمُ إِلَٰهَ الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ ﴿١٧﴾.

يخبر تعالى أن الناس إذا مسهم ضر دعوه منييين إليه مخلصين له الدين، ولهذا قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا﴾ أي ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فاراً من رسول الله ﷺ حين فتح مكة فذهب هارباً فركب البحر ليدخل الحبشة فجاءتهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا ينجي عنكم إلا أن تدعوا الله وحده، فقال عكرمة في نفسه، والله إن كان لا ينفع في البحر غيره، فإنه لا ينفع في البر غيره، اللهم لك علي عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد فلاجدنه رؤوفاً رحيماً، فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه وأرضاه ﴿فَلَمَّا تَجَنَّكُمُ إِلَٰهَ الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أي نسيتم ما عرفتم من توحيده في البحر، وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ أي سجيته هذا، ينسى النعم ويجحدتها إلا من عصم الله.

﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ ﴿١٨﴾.

يقول تعالى: أفحسبتم بخروجكم إلى البر أمتم من انتقامه وعذابه أن يخسف بكم جانب البر، أو

يرسل عليكم حاصباً، وهو المطر الذي فيه حجارة ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكَيلًا﴾ أي ناصراً يرد ذلك عنكم، وينقذكم منه.

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ ﴿٦٩﴾ .

يقول تبارك وتعالى: أم أمتتم أيها المعرضون عنا بعدما اعترفوا بتوحيدنا في البحر، وخرجوا إلى البر أن يعيدكم في البحر مرة ثانية، فيرسل عليكم قاصفاً من الريح، أي يقصف الصواري، ويفرق المراكب، قال ابن عباس وغيره: القاصف: ريح البحار التي تكسر المراكب وتفرقها. وقوله: ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى، وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ نصيراً، أو نصيراً ثائراً، أي يأخذ بثأركم بعدكم. قال قتادة: ولا نخاف أحداً يتبعنا بشيء من ذلك.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ ﴿٧٠﴾ .

يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم، وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ﴿١﴾ [التين: 4] أن يمشي منتصباً على رجليه، ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع، ويأكل بفيه، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً يفقه بذلك كله، ويستفح به، ويفرق بين الأشياء، ويعرف منافعها وخواصها، ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية، ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ﴾ أي على الدواب من الأنعام والخيل والبغال، وفي البحر أيضاً على السفن الكبار والصغار ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي من زروع وثمار ولحوم وألبان من سائر أنواع الطعوم والألوان الشستهة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع على اختلاف أصنافها وأنواعها وأشكالها مما يصنعونه لأنفسهم، ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي من سائر الحيوانات، وأصناف المخلوقات. وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة. روى الطبراني، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما شيء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم» قيل: يا رسول الله، ولا الملائكة؟ قال: «ولا الملائكة، الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر» وهذا حديث غريب جداً.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَتِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظَلَمُونَ فِيهِ لَاحَةً﴾ ﴿٧١﴾ .

يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة أنه يحاسب كل أمة بإمامهم، أي نبيهم. وقال بعض السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث لأن إمامهم النبي ﷺ، وقيل: بكتابتهم الذي أنزل على نبيهم من

التشريع، أو بكتاب أعمالهم، وهذا القول هو الأرجح لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَارٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: 12] ويحتمل أن يكون المراد ﴿يَأْمُرُهُمْ﴾ أي كل قوم بمن يأتون به، فأهل الإيمان اتَمُوا بالأنبياء ﷺ، وأهل الكفر اتَمُوا بأئمتهم كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكْفُرُونَ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ [القصر: 41] ﴿فَمَنْ أَوْقَى كِتَابَهُ يَسِينُهُ فَأَوَّلْتِكَ يَقْرَهُ وَنَ كِتَابَهُمْ﴾ أي من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح، يقرؤه ويحب قراءته ﴿وَلَا يُظَلِّمُونَ فِتْيَانًا﴾ والفتيل هو الخيط المستطيل في شق النواة.

﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٧٧).

﴿فِي هَذِهِ﴾ أي في الحياة الدنيا ﴿أَعْمَى﴾ أي عن حجة الله وآياته وبيناته ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ أي كذلك يكون ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي وأضل منه، كما كان في الدنيا عياداً بالله من ذلك.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرًا وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ (٧٨) ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٩) ﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ (٨٠).

يخبر تعالى عن تأييده رسوله ﷺ، وتثبيتته وعصمته وسلامته من شر الأشرار، وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه، وناصره ومؤيده، ومظفروه ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه في مشارق الأرض ومغاربها. صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨١).

نزلت في كفار قريش، هموا بإخراج رسول الله ﷺ من بين أظهرهم فتوعدهم الله بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً، وكذلك وقع، فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعدما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصف حتى جمعهم الله وإياه بيدراً على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلطه عليهم، وأظفره بهم، فقتل أشرافهم، وسبى ذراريهم، ولهذا قال:

﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ (٨٢).

﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا﴾ أي هكذا عادتنا في الذين كفروا برسولنا وأذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم يأتيهم العذاب، ولولا أنه ﷺ رسول الرحمة لجاهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلْفُ اللَّهِ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلْفُ اللَّهِ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: 33].

﴿أَفِرَّ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى عَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٧٨).

يقول تبارك وتعالى لرسوله ﷺ أمراً له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها: ﴿أَفِرَّ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ قيل: لغروبها، وقيل: دلوكها زوالها، ويشهد لهذا ما ورد عن جابر قال: دعوت رسول الله ﷺ، ومن شاء من أصحابه، فطعموا عندي، ثم خرجوا حين زالت الشمس، فخرج النبي ﷺ فقال: «أخرج يا أبا بكر، فهذا حين دلت الشمس» ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾ يعني صلاة الفجر ﴿إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ تشهده ملائكة الليل، وملائكة النهار. في البخاري أن النبي ﷺ قال: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل، وملائكة النهار في صلاة الفجر» يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (٧٩).

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة، كما ورد في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه سئل أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال: «صلاة الليل» ولهذا أمر الله رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل، فإن التهججد ما كان بعد نوم ﴿نَافِلَةً لَكَ﴾ قيل: معناه أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك، فقيام الليل واجب في حقه دون الأمة، وهو أحد قولي العلماء، وأحد قولي الشافعي رحمه الله ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ أي افعل هذا الذي أمرتك به لنقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً يحمدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم تبارك وتعالى. قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذي يقومه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (٨٠).

روى الإمام أحمد قال: كان النبي ﷺ بمكة، ثم أمره بالهجرة فأنزل الله ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ...﴾ وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الحسن البصري في تفسير هذه الآية: إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه، أو يطردوه، أو يوثقوه، فأراد الله قتال أهل مكة أمره أن يخرج إلى المدينة فهو الذي قال الله عز وجل ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ يعني مكة، ﴿لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ حجة بينة، ولا بد معها من قهر لمن عاداه وناوأه، ولهذا قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: 25] وفي الحديث: «إن الله لينزع بالسلطان ما لا ينزع بالقرآن» أي ليمتنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش

والآثام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن وما فيه من الوعيد الأكيد، والتهديد الشديد. وهذا هو الواقع.

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ .

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ...﴾ . تهديد ووعيد لكفار قريش، فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه، ولا قبل لهم به، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع، وزهق باطلهم، أي اضمحل وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ .

﴿شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يذهب ما في القلوب من أمراض من شك ونفاق وشرك وزينج وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله. وهو أيضاً رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدق واتبعه فإنه يكون شفاء في حقه ورحمته، وأما الكافر الظالم نفسه بذلك فلا يزيد سماعه القرآن إلا بعداً وكفرأً، والآفة من الكافر لا من القرآن ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِحَنَانِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَتُوسَّأُ ﴿٨٣﴾﴾ .

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله تعالى في حالتي السراء والضراء، فإنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية وفتح ورزق ونصر، ونال ما يريد أعرض عن طاعة الله وعبادته ونأى بجانبه. قال مجاهد: بعد عنا، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَفَفْنَا عَنْهُ صُرْمُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى صُرْمٍ مَّسَّهُ...﴾ [يونس: 12] وقوله: ﴿كَأَن يَتُوسَّأُ﴾ أي قنط أن يعود يحصل له بعد ذلك خير.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَن هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ .

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ على ناحيته، أو على حدته وطبيعته، أو على نيته. وهذه الآية والله أعلم تهديد للمشركين ووعيد لهم، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [هود: 121، 122] ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَن هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ أي منا ومنكم، وسيجزى كل عامل بعمله، فإنه لا تخفى عليه خافية.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ .

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ في حرث المدينة، وهو متوكئ على عسيب، فمر بقوم من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه، قال: فسألوه عن الروح، فقالوا: يا محمد ما الروح؟ فما زال متوكئاً على العسيب، قال: فلظننت أنه يوحى إليه فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا

قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ قال: فقال بعضهم لبعض قد قلنا لكم: لا تسألوه، وهكذا رواه البخاري ومسلم. عن عطاء بن يسار قال: نزلت بمكة ﴿وَمَا أُوتِشْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه أحناب يهود، وقالوا: يا محمد، ألم يبلغنا عنك أنك تقول: ﴿وَمَا أُوتِشْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أفعنيتنا أم عنيت قومك؟ فقال: «كلًا قد عنيت» فقالوا: إنك تتلو أنا أوتينا التوراة، وفيها تبيان كل شيء، فقال رسول الله ﷺ: «هي في علم الله قليل، وقد آتاكم الله ما إن عملتم به انتفعتم» وأنزل الله ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: 27] والمراد بالروح أرواح بني آدم.

﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ ﴿٨٧﴾ قُلْ لِيِنَ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ ﴿٨٨﴾ .

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم ﷺ فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. قال ابن مسعود يطرق الناس ريح حمراء، يعني في آخر الزمان من قبل الشام، فلا يبقى في مصحف رجل ولا في قلبه آية ثم قرأ ابن مسعود ﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ . . .﴾ ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله لما أطاقوا ذلك، ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا، فإن هذا أمر لا يستطيع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا نظير له، ولا مثال له، ولا عدليل له.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ ﴿٨٩﴾ .
﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ . . .﴾ أي بينا لهم الحجج والبراهين القاطعة، ووضحنا لهم الحق، وشرحناه وस्पطناه، ومع هذا ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي جحدوا للحق، ورداً للصواب.

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ ﴿٩١﴾ .

﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ ينبوع: العين الجارية، سأله أن يجري لهم عيناً معيناً في أرض الحجاز ههنا وههنا، وذلك سهل على الله سير، لو شاء فعله، ولأجابهم إلى جميع ما سألوا وطلبوا، ولكن علم أنهم لا يهتدون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٩١﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿٩٧﴾ [يونس: 96، 97].

﴿أَوْ تَسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا أَيْسَافًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةَ قِيَلًا﴾ (٩٢).

﴿أَوْ تَسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا كَيْسَافًا﴾ أي أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء، وتدلى أطرافها فعجل ذلك في الدنيا، وأسقطها كسفاً أي قطعاً، وكذلك سأل قوم شعيب منه فقالوا ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْسَافًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (الشعراء: 187) فعاقبهم الله بعذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم، وأما نبي الرحمة، ونبي التوبة المبعوث رحمة للعالمين فسأل إنظارهم وتأجيلهم، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً، وكذلك وقع فإن منهم من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه حتى عبد الله بن أبي أمية الذي قال للنبي ﷺ: فوالله لا أؤمن بك حتى تتخذ إلى السماء سلماً، ثم ترقى فيه، وأنا أنظر حتى تأتيها، وتأتي معك بصحيفة منشورة، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وإيم الله لو فعلت ذلك لظننت أنني لا أصدقك، حتى هذا أسلم إسلاماً تاماً، وأتاب إلى الله عز وجل.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُرُوفٍ أَوْ تَرَفٍّ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تَنزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٣).

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُرُوفٍ﴾ هو الذهب ﴿أَوْ تَرَفٍّ فِي السَّمَاءِ﴾ أي تصعد في سلم ونحن ننظر إليك ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تَنزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ﴾ قال مجاهد: أي مكتوب فيه إلى كل واحد واحد صحيفة: هذا كتاب من الله لفلان ابن فلان تصبح موضوعة عند رأسه. ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ أي سبحانه وتعالى وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفعال لما يشاء إن شاء أجايبكم إلى ما سألتكم، وإن شاء لم يجيبكم، وما أنا إلا رسول إليكم، أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم، وقد فعلت ذلك، وأمركم فيما سألتكم إلى الله عز وجل. في مسند الإمام أحمد «عرض عليّ ربي عز وجل ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت: لا يا رب، ولكن أشبع يوماً، وأجوع يوماً - أو نحو ذلك - فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبع حمدتك وشكرتك» ورواه الترمذي في الزهد، وقال: هذا حديث حسن.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٤).

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾ أي أكثرهم ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ ويتابعوا الرسل إلا استعجابهم من بعثة البشر رسلاً إلا أن قالوا ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: 6].

﴿قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ (٩٥).

ثم قال تعالى منها على لطفه ورحمته بعباده أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم ليفقهوا عنه،

وفهموا منه، ليمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: 164] ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: 128] ولهذا قال: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي كما أنتم فيها ﴿لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ أي من جنسهم، ولما كنتم أنتم بشراً بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفاً ورحمة.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٩٦).

يقول تعالى مرشداً نبيه ﷺ إلى الحجة على قومه في صدق ما جاءهم به: إنه شاهد عليّ وعليكم، عالم بما جتتكم به، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني أشد الانتقام كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ لَعَلَّنَا بَعْضَ الْأَقَابِ﴾ (٩٤) ﴿لَاخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ (٩٥) ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٩٦) ﴿فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَشِدِّ عُنْتِهِ حَاجِرِينَ﴾ (٩٧) [الحاقة: 44-47] وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أي عليماً بهم، بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية ممن يستحق الشقاء والإضلال والإزاعة.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَٰ وَبُكَآ وَصُمًّا مَّا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ (٩٧).

يقول تعالى مخبراً عن تصرفه في خلقه ونفوذ حكمه، وأنه لا معقب له بأنه من يهده. فلا مضل له، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه، أي يهدونهم ﴿وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ روى الإمام أحمد قيل: يا رسول الله، كيف يحشر الناس على وجوههم؟ قال: «الذي أمشاهم على أرجلهم فادر أن يمشيهم على وجوههم» وأخرجاه في الصحيح. ﴿عُمِيَٰ﴾ أي لا يبصرون ﴿وَبُكَآ﴾ يعني لا ينطقون ﴿وَصُمًّا﴾ لا يسمعون. وهذا يكون في حال دون حال جزاء لهم كما كانوا في الدنيا بكمياً وعمياً وصماً عن الحق فجوزوا في محشرهم بذلك أخرج ما يحتاجون إليه. ﴿مَّا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ أي منقبلهم ومصيرهم جهنم ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ سكنت، أو طفت ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ أي لهباً ووهجاً وحجراً كما قال: ﴿فَذَوْقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ (٩٨) [النبا: 30].

﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (٩٨).

يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم به من البعث على العمى والبكم والصمم جزاؤهم الذي يستحقونه، لأنهم كذبوا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي بأولتنا وصحبتنا، واستبعدوا وقوع البعث ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْتًا﴾ أي بالية نخرة ﴿أَوَءَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي بعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك والتفرق والذهاب في الأرض نعاد مرة ثانية؟.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٤٩﴾﴾ .

فاتحج تعالى عليهم ونبههم على قدرته على ذلك بأنه خلق السموات والأرض، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك، كما قال: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غانر: 57] وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَمَيِّمْ يَخْلُقْهُنَّ يَتَدَبَّرْ عَلَىٰ أَنْ يُخَيِّقَ الْمَوْتُ بَلَىٰ إِنَّهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الاحقاف: 33] وقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى كما بأدهم ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي جعل لاعادتهم واقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً، ومدة مقدرة لا بد من انقضائها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود: 104] وقوله: ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ﴾ أي بعد قيام الحجة عليهم ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ إلا تمادياً في باطلهم وضلالهم .

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١١٠﴾﴾ .

يقول تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه: قل لهم يا محمد، لو أنكم أيها الناس تملكون التصرف في خزائن الله ﴿لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ أي الفقر، أي خشية أن تذهبوا مع أنها لا تفرغ، ولا تنفذ أبداً، لأن هذا من طباعكم وسجاياكم، ولهذا قال ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ أي بخيلاً منوعاً . وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمَالِ فَإِذَا لَا يُوَفُّونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء: 53] ويدل هذا على كرمه وجوده وإحسانه سبحانه وتعالى، وقد جاء في الصحيحين: «يد الله مملأى، لا يفيضها نفقة، سماء الليل والنهار، أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يفيض ما في يمينه» .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَخَّرَ بِئِنَّ إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١١١﴾﴾ .

يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات، وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عن فرعون، وهي العصا واليد، والسنين والبحر، والظوفان والجراد، والقمل والضفادع والدم، آيات مفصلات . ﴿فَأَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الاعراف: 133] أي ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها كفروا بها ﴿وَجَعَدُوا بِهَا وَأَسْتَقْبَتَهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: 14] وما نجعت فيهم، فكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوكم ما سألوكم ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَنْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ [الإسراء: 90] لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء الله كما قال فرعون لموسى، وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ قيل: بمعنى ساحر، والله أعلم .

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِيَفْرَعَوْتُ مَثْبُورًا ﴿١١٢﴾﴾ .

﴿بَصَآئِرٍ﴾ أي حججاً وأدلة على صدق ما جئتك به ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِيَفْرَعَوْتُ مَثْبُورًا﴾ أي هالكا، أو ملعوناً، أو مغلوباً .

﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١١٣﴾﴾ .
 ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي يخليهم منها ويزيلهم عنها ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ .

﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١١٤﴾﴾ .
 ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع، فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ يُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ ولهذا أورث الله رسوله مكة، فدخلها عنوة على أشهر القولين، وقهر أهلها، ثم أطلقهم حليماً وكرماً، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها وأورثهم بلاد فرعون وأمواهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم، كما قال: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء: 59].

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ .
 يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، وهو القرآن المجيد: إنه بالحق نزل، أي متضمناً للحق كما قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: 166] أي متضمناً عسم الله الذي أراد أن يطلعكم عليه من أحكامه وأمره ونهيه. وقوله: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ﴾ أي ونزل إليك يا محمد محفوظاً محروساً لم يشب بغير، ولا زيد فيه، ولا نقص منه، بل وصل إليك بالحق، فإنه نزل به شديد القوى الأمين المكين المطاع في الملاء الأعلى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ أي يا محمد ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ مبشراً لمن أطاعك من المؤمنين، ونذيراً لمن عصاك من الكافرين .

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْتَبٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلاً ﴿١١٦﴾﴾ .
 ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ﴾ فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفزاً منجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ﴾ أي لتبلغه الناس، وتتلوه عليهم أي ﴿عَلَى مُكْتَبٍ﴾ أي مهل . ﴿وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلاً﴾ أي شيئاً بعد شيء .

﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِمْ أَوْ لَا تُوْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُسْئَلُ عَلَيْهِمْ يُخَوِّنُونَ لِأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١١٧﴾﴾ .
 يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين بما جتتهم به من هذا القرآن العظيم ﴿ءَامِنُوا بِهِمْ أَوْ لَا تُوْمِنُوا﴾ أي سواء أمتم به أم لا، فهو حق في نفسه، أنزله الله، ونوه بذكره في سالف

الأزمان في كتبه المنزلة على رسله، ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي من صالح أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابتهم، وأقاموه ولم يبدلوه ولا حرفوه ﴿إِذَا يَتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ هذا القرآن ﴿يَخْرُجُونَ لِلْذِّقَانِ﴾ جمع ذقن، وهو أسفل الوجه ﴿سُجَّادًا﴾ أي لله عز وجل شكراً على ما أنعم به عليهم من جعله إياهم أهلاً إن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب، ولهذا يقولون:

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ ﴿١٧٨﴾ .

﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ أي تعظيماً وتوقيراً على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على السنة الأنبياء المتقدمين عن بعثته محمد ﷺ، ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ .

﴿وَيَخْرُجُونَ لِلْذِّقَانِ يَتَكَوَّمُونَ حُشُوعًا﴾ ﴿١٧٩﴾ .

﴿وَيَخْرُجُونَ لِلْذِّقَانِ يَتَكَوَّمُونَ﴾ أي خضوعاً لله عز وجل، وإيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله ﴿وَيَزِيدُهُمْ حُشُوعًا﴾ أي إيماناً وتسليماً، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآثَمَهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ ﴿١٧٧﴾ [عمد: 17].

﴿قَلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَخَافَتْ يَهَا وَابْتِغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ﴿١٨٠﴾ .

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله عز وجل المانعين من تسميته بالرحمن ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي لا فرق بين دعائكم له باسم الله أو باسم الرحمن، فإنه ذو الأسماء الحسنى. روى مكحول أن رجلاً من المشركين سمع النبي ﷺ، وهو يقول في سجوده «يا رحمن يا رحيم» فقال: إنه يزعم أنه يدعو واحداً، وهو يدعو اثنين فأنزل الله هذه الآية. وقوله ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ...﴾ روى الإمام أحمد قال: نزلت هذه الآية، ورسول الله ﷺ متوارٍ بمكة، قال: كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن، وسبوا من أنزله، ومن جاء به، قال: فقال الله لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقرائك فيسمع المشركون فيسبون القرآن ﴿وَلَا تَخَافَتْ يَهَا﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿وَابْتِغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أخرجاه في الصحيحين.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذُ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِّنَ الدَّلِيلِ وَكَرِهَ

تَكْبِيرًا﴾ ﴿١٨١﴾ .

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذُ وَلَدًا﴾ بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِّنَ الدَّلِيلِ﴾ أي ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له ولي، أو وزير، أو مشير، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لا شريك له، ومدبرها، ومقدرها بمشيئته وحده لا شريك له ﴿وَكَرِهَ تَكْبِيرًا﴾ أي عظمه وأجله عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً. وقد جاء في حديث أن رسول الله ﷺ سمي هذه الآية آية العز.